توظيف الشخصية التراثية

في

الشعر العربي الليبي الحديث

أنيس السنوسي ميلود محمد

توظيف الشخصية التراثية في الشعر العربي الليبي الحديث

الملخص

الشعراء الليبيون قد حاولوا في حدود إمكانات كل شاعر أن يستفيدوا من الموروث الديني والقومي في التعبير عن تجاربهم الشعرية، ولكنهم ظلوا مقيدين إلى الملامح العامة لكل شخصية تراثية، مما يدل على أنهم لم يتعمقوا في دراسة الموروث وظلت معرفتهم به في حدود المتداول ، ولم يستطيعوا أن يوظفوا الإمكانات التي يزخر بها التراث بما يحمله من قيم عاطفية ، ونفسية ، واجتماعية ، وظل استخدامهم له في حدود ما كشف عنه الرواد من تقنيات دون أن يتجاوزوا ذلك أو يتقنوا توظيف المعروف منه .

وجد التراث العربي اهتماماً يتناسب مع ما يمكن أن يسجله الشاعر من إثارة الانفعال الذاتي والجماعي من تلقاء توظيف الشخصية أو الحدث لمحاكاة معاناته وواقعة .

فكان لابد من إعادة توظيف الأحداث والشخصيات التاريخية التي تُضفي على العمل الشعري تواصلاً بين الماضي والحاضر .... ولكن كيف يتم استدعاء هذا التراث ... ؟

في الشعر الكلاسيكي غلب طابع قراءة التاريخ واستذكار أحداثه للعبرة والعظة ، أما في الشعر المعاصر فإن الشاعر لم يتعامل مع التاريخ من أجل نقل حقائقه وعرضها على المتلقي فحسب ، وإنما يستدعى الشخصية أو الحدث ليخلق نوعاً من التفاعل والتداخل بين الماضي والواقع المعاصر ، بحيث يتم إعادة صياغة الدلالة التاريخية

وبعث الحياة فيها من جديد ، كأن يستثير الشاعر موقفاً سياسياً مُتخاذلاً ، يستدعى التاريخ للمفارقة التصويرية أو الاستخدام العكسي ، وهنا يحدث التداخل بين الموقفين ويشعر المتلقي بالجدّة والحيوية للموقف الشعوري.

وتشكل الشخصيات التراثية بانتماءاتها المختلفة : الدينية والتاريخية والأدبية والشعبية مصدراً ثرياً استمد منه الشعراء مادةً لغوية غنية بكثير من الطاقات الإيحائية الزاخرة بالعطاء النفسي والوجداني الذي يلخص تجارب تلك الرموز أو الشخصيات بأبعادها التي حدّدها لها واقعها التاريخي في عصرها أو بملامحها الأسطورية التي عرفت بها وتناقلتها ذاكرة الأجيال واختزنها الوجدان العام .

وقد اكتظ الشعر الحرّ في ليبيا بكثير من الرموز التراثية التي استعان بها الشعراء لتحقيق نوع من التواصل بين الماضي والحاضر ولاستنفار بعض القيم الدينية والقومية التي تحملها تلك الرموز بقصد إحيائها وإعادة بعثها لمواجهة الأخطار التي تواجهها الأمة في نضالها السياسي والاجتماعي والثقافي ، كذلك لمحاربة القيم السلبية التي تسللت إلي حياتنا في عصور التخلف والانحطاط .

وإلي جانب ذلك فقد أصبح استخدام الرموز التراثية سمة بارزة من سمات الشّعر الحرّ ، حيث وجد كل شاعر في ينابيع التراث (أدوات يثرى بها تجربته الشعرية يمنحها شمولاً وكلية وأصالة ، وفي نفس الوقت يوفرّ لها أغنى الوسائل الفنية بالطاقات الإيحائية وأكثرها قدرة

على تجسيد هذه التجربة وترجمتها ونقلها إلي الملتقي) [١]، (فقد أصبح الشعراء بحاجة مُلحة إلي توسيع طاقات التعبير، وإلي الدخول في فضاءات لم يهم الشعراء في القرون الماضية أن يدخلوا فيها) [٢]

ويهدف هذا البحث إلي تتبع علاقة الشاعر الليبي بموروثه عبر رحلته الخصبة من صيغة "التعبير عن الشخصية التراثية" إلي صيغة "التعبير بها" "أو توظيفها" .

وقد أكثر الشعراء من ترديد أسماء عدد من الشخصيات التي تنتمي إلي مصادر تراثية مختلفة واعتقد بعض الشعراء الذين تعلقوا بتجربة استدعاء التراث أن العملية لا تتجاوز حشد أسماء معينة متجاهلين الشروط الفنية التي ينبغي أن تتحقق للنص من خلال توظيف التراث أو الشخصية المُستدعاة .

وتأتي شخصيات الأنبياء عليهم السّلام في مقدمة الشخصيات التي استأثرت بعناية الشعراء لما وجدوه في سيرتهم الطاهرة من صنوف المعاناة واحتمال الألم ، وما كانوا يلاقونه من ظلم الأهل والعشيرة ومن

---

[١] استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر : علي عشري زايد ، الشركة العامة للنشر – طرابلس ، ط١ – ١٩٧٨م ص ٩٣.

[٢] المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر :الحلقة النقدية في مهرجان جرش الثالث عشر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولي ، الأردن ١٩٩٥م ص٥٣ .

[٣] ديوان" أنشودة الحزن العميق " : محمد الشلطامي , منشورات جيل ورسالة – طرابلس ، ط١ – ١٩٧٢ م ص١٢٨ – ١٢٩ .

تجاهل لرسالتهم الإنسانية وتسفيه لتضحياتهم . وهذا الملمح من حياة الرُّسُل هو الذي تأسّى بهَ الشاعر محمد الشلطامي فكل صاحب رؤية رفيق للحزن ، وأخ للعذاب ، وعرضة للأخطار ، فكم وجد الرسل الكرام من صنوف المعاناة :

خذني بعينيك الحزينة زهرة حرفاً

شراع

يمضي مع الأفق المبارك عشبة ألما قتيل

في ساحة القتلى ، فأحمد شُجّ في

أُحد ، وهود

يُنْفى ، ويوسف في صقيع الجُبَ

يخنقه اللئام (٣)

إنَّ الشاعر يفهم الموقف المعاصر ويدرك طبيعة رسالته ويعرف دوره في مجتمعه ، وهو حين يضطلع برسالته في مجتمع لم يتفتح وعيه، يجد نفسه منبوذاً من قومه محارباً في أهله غريباً في وطنه ، عرضة للسخرية متّهماً بالكفر والإلحاد ؛ لأنه خرج عن العادة وحارب المألوف ، دعا إلي غير ما تعوّدوا ، وهاجم قوى التخلف والجمود .

وهذا الموقف للشاعر المعاصر هو الموقف نفسه الذي واجه الأنبياء في أقوامهم ، فعيسي عليه السلام الذي لقي ما لقي من عنت اليهود والمكذبين برسالته ، ماذا أراد أن يفعل غير تخفيف آلام المرضي والمعذبين والفقراء ، وماذا فعل نوح غير أنَّه أدرك أن الطوفان آت فأعدّ سفينة للنجاة .

وعبد المجيد القمودّي الشاعر المعاصر يجد في سيرة الأنبياء عليهم السلام معادلاً لموقفه الحاضر **حين يقول** :

عندما صيرّت من حرفي (إزميلاً) بكفـّي

حاولت أن أرسم ، وجه القادم

الإنسان

إنسان بلادي

ذُعِرَ الأحبابُ منـّي

وأشاحوا الوجه عنـّي

زعموا أني (ألحدتُ) بربّي

وله أصبحتُ في الملك شريكا

(ترسم الإنسان يا هذا) ؟!!

معاذ الله

واستلّــوا من الراحة (إزميلي)

ودقّوه بصدري

عندما حاولت أن أبرىء يوما أكمه

في مقلتيه احتــدّ شوق الكلمات

صفعوا وجهي :

(أتمارى الله فيما شاء يا هذا) ؟!!

أتبغي أن تحل اللعنات ؟

عندما حاولت أن أصنع من حرفي سفينة مثل نوح

عندما أحسستُ بالطوفان آت [١] .

وتستحوذ دلالات المعاناة على رؤية أغلب الشعراء فيجدون لها مُعادلاً في قصة يونس وفي قصّة أيوب وفي صلب المسيح ، وحزن يعقوب[٢].

---

[١] ديوان "قصائد بين يدي وطني" : عبد المجيد القمودي , منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – طرابلس ، ط١ – ١٩٨٢ ص ١١٢ – ١١٣ .

[٢] انظر علي سبيل المثال : المجموعة الأولي من الأعمال الشعرية الكاملة :علي الفزاني ,الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعــلان طــرابلس ، ط١ – ١٩٧٥م ص٢٦٨ ، ٣٠٣ وديوان " غداً سيقبل الربيع " : خالد زغبية ، الــدار العربيــة للكتاب – ليبيا – تونس ط٢ – ١٩٨٩ م ص ٢٢ ، ٣٠ ، ٧٧ .

وشخصية المسيح عليه السلام من أكثر شخصيات الأنبياء حضوراً لدى الشعراء الذين وجدوا في ملامحها المستمدة من التراث المسيحي مثل الصّلب والفداء والحياة بعد الموت ما يتجاوب مع رؤيتهم ويعبر عن معاناتهم.

وكان ملمح الصلب من أكثر الملامح التي أسقط عليها الشعراء الدّلالات المعاصرة التي تجسّد الآلام المادية والمعنوية التي يتحملها الشعراء في سبيل التزامهم بأداء رسالتهم ، فكل شاعر مسيح يعاني الصّلب ، يقول علي الفزاني :

صلبوني فوق أعواد حقيرة

من غصون قد تغنّى فوقها شاد وناح

لم أقلها أنني كنت نبيّاً

أتلقى الوحي من إله في الأعالي

فلقد كنت فقيراً ... ومُهانا وحقيراً [٣] .

ويستعير عبد المجيد القمودي هذا الملمح نفسه ليعبر عن عذابه وحزنه ، وهو يقاوم ليلاً حالك الظلمة يختفي خلف صبح كاذب يخدع به الطغُاة أعين الشعب حتى يظل غافلاً عن الأيدي الآثمة التي تنسج خيوط الظلام:

---

[٣] ديوان : المجموعة الأولي من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ص ٢٩.

أنا ما كنت مسيحاً

أنا ما أورثني غير جراحه

أنا ما ضاعف حزني

غيرُ ليلٍ ظلَّ مُندساً بأثواب صباحه

يخدع الأعينَ بالضّوء

وفي الأعماق يزدادُ قتامه [١]

ويستلهم إدريس الطيب ملمح الحياة من خلال الموت عندما يخاطب حبيبته الشهيدة في جنوب لبنان قائلاً :

وفي صور أراك تموتين في بيت

موسي

وأولد فيك [٢]

فالشهيدة التي اختارت الموت طريقاً لتأكيد الحق العربي في الحرية واستعادة الأرض ؛ إنما تضحّي من أجل أن يكون موتُها ولادةً لأولئك الذين سيواصلون طريق الكفاح .

---

[١] ديوان " قصائد بين وطني " : ص ١١٤ .

[٢] ديوان " تخطيطات علي رأس شاعر" ادريس بن الطيب ، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان- طرابلس ، ط١ – ١٩٧٦م ص٩١ .

وإلي جانب الملمحين السابقين فإن المسيح قد يكون أحياناً رمزاً للثورة المرتقبة أو البطل المنتظر الذي يكون ميلاده بشارة الثورة :

حين يجيء المخاضُ ويولد تحت النخيل المسيح [٣] .

وتتميز شخصية النبي محمد صلي الله عليه ، من بين الأنبياء بدلالة البطل المنقذ الذي يهب لنجدة الأمة وإنقاذها مما أصابها من بلاء ، وأحاط بها من محن ، وقد أعطى الشّعراء لشخصية الرسول هذا الدّور في القصائد التي قيلت في محنة ١٩٦٧م ، ففي قصيدة " أنا والحرف والرقيعي " يستصرخ القمودي النبي عليه السلام ليهب لإنقاذ الأمة قبل فوات الأوان :

يا حمامة ..

ناشدي السمّح الذي في (الغار)

أن يخرج كي ينقذنا مما نعاني

قبل أن يدركّنا يومُ القيامة [١]

وفي قصيدة (رؤيا مع الثقب) للفزاني تأخذ شخصية الرسول صورةَالبطل الثائر الغاضب لما آل إليه حال أمته من تمزّق وهزيمة مستنكراً موت البطولة في أبنائها ، واستسلامها لسلام الضعفاء :

---

[٣] المرجع السابق : ص ٩١ .

[١] ديوان "قصائد بين يدي وطني" : ص ١١٤ .

إني رأيت ذات ليلة ، رأيت في المنام

(محمـــــــــــــداً) ممتطياً بُراقة بلا لجام

رأيتُه سمعتُه يقول :

أليس بين أُمتي ، أليس من (أخيل)

أهكذا يضيع كلٌّ ، كلّ هذا الجيل

أكل أمتي تمزقت ، غدت فلول [٢]

وتِشكل المعجزات ملمحاً آخر من شخصيات الأنبياء عليهم السلام، فهي الحجة التي يَدْمغُ بها كل نبي المُعاندين من قومه ، بما في المعجزة من قدرة على اختراق قوانين الواقع التي تؤكد صحّة رسالة النبي ، وتسقط حجة المعاند ، والشاعر وهو يعاني صلادة الواقع وجموده يحتاج إلي معجزة تعينهُ على تجاوزه والانتصار عليه ، وهو يدركُ – بداية – أن معجزته هي الكلمة الصادقة التي يُفحُم بها المكذبين ويُخرِسُ أعداء الحقيقة . ويجد عبد الحميد بطاو في هذا الملمح سنداً يقوى به حجته ، وهو يخاطب زملاءه من الشعراء ليكونوا أكثر تمسّكاً بمعجزتهم – الكلمة :

أكبر فيكم حبَّ الكلمة

تقديسَ الكلمة في محراب الفكر

---

[٢] المجموعة الأولي من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ص٣٧٧ .

إذ أني أيقنتُ بملقاكم

أن الكلمة لا زالت في خير

لا زالت كعصا موسى

وكفٍّ يسوع

وجبّةِ يوسف

تُشفي الأبرص

وتعيد الأعمى بصيراً

وتشقّ البحر

تفتح فيه طريقا مرصوفا [١]

ويوظّف إدريس الطيب قصة يوسف عليه السلام توظيفاً جيداً في المقطع الخامس من قصيدته " تخطيطات علي رأس الشاعر " فيوسف عليه السلام رمز للمناضل الثوري الذي تطارده السلطة وتسلط عليه أجهزتها ، حيث يستدعي الشاعر العناصر الأساسية في قصة يوسف ليسقط عليها رؤيته المعاصرة من خلال بدائل جديدة تحل محل العناصر التراثية التي تشكل الرؤية العامة :

---

[١] ديوان " تراكم الأمور الصعبة " : عبد الحميد بطاو , المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – طرابلس ط٢– ١٩٨٣م ص٧ .

ابنك – يا يعقوب – لم تعشقه ، لم تسجنه

امرأة العزيز

بل شرطة المباحث

فكل أفراد قبيلتي مباحث

السجن مثل البيع ، لا خيار

لكنه رآك في المنام تزن الرصّاص للرجال ...

رؤياه لم تخب من قبل ، لم تلامس المحال ...

يوسف – يا يعقوب – لم تفتك به الذئاب

لم يمت ...

يهديكُم السلام [٢]

ومن الشخصيات المقدّسة التي لقيت عناية الشعراء السيّدة مريم عليها السّلام وقد اقتصر توظيف الشعراء لملامحها على المفهوم الإسلامي بما ورد في القرآن الكريم مثل معجزة تساقط الرطب في قوله تعالي : " وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً " [١] وهو

---

[٢] ديوان "تخطيطات علي رأس شاعر" ، ص١٠١ .

[١] الآية (٢٥) من سورة مريم .

الملمح الذي يوظفه علي صدقي عبد القادر رمزاً لقدرة الإنسان علي البذل والعطاء وانتصار القوى الخيّرة فيه :

لماذا حزينة

لنمشِ على الدّرب كفّاً بكفّ ، ونبسم

فأحرفُ أسمك [٢] فوق فمي ، قوة ساخنة

ولمسُ أصابعك النابضات ، قصيدة شعر

وأنفاسُك اللاهباتُ بوجهي ، وعيناك مغمضتان

تهزّ جذوري ، تحّولني نخلة ، تسقط التّمر في مرّة واحدة [٣]

أو نذرها للصّوم عن الكلام في قوله تعالي : " فقولي إني نذرتُ للرّحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً " [٤] حيث يوظف لطفي عبد اللطيف هذا الملمح عندما يخاطب العام الجديد متسائلاً عن السر في صمته وتجهّمه:

أم هل نذرت للرحّمن صوماً مثل صوم مريم

وجئتنا ملجَّما ملَجَم [٥]

---

[٢] قطع همزة الوصل ليستقيم الوزن .

[٣] ديوان " الأعمال الشعرية الكاملة ": علي صدقي عبد القادر : ص ٦٠٨ .

[٤] الآية (٢٦) من سورة مريم

[٥] ديوان "حوار من الأبدية " : لطفي عبد اللطيف ، دار لبنان للطباعة والنشر – بيروت ط ١– ١٩٦٩م ص ١٣ .

الشاعر يضيق ذرعاً بالصمت العربي في الوقت الذي يحتل فيه العدو الأرض العربية ، ويعبث بأقدس مقدسات الأمة ، يأتي العام الجديد شأنه شأن أي عامٍ مضى لا يحمل علامة أو إشارة إلي أن شيئاً ما في الحياة العربية سيتغير ، الصمت يخيم علي كل شيء ، صمت كصوم مريم ، غير أن صمت مريم صمت إيجابي ؛ لأنه مقدمة لمعجزة هي حديث الوليد الذي يؤكد براءتها ويثبت طهارتها ، أما الصمت العربي فهو صمت سلبي مخيف أشبه بالسكون الذي يسبق العاصفة ، فليس بعده سوى موت روح الكفاح واستمرار الواقع المخزي .

ومما يتصل بالموروث الديني بعض الشخصيات المنبوذة مثل الدجال الأعور، ويهوذا ولكل شخصيّة منهما إطارها الخاص الذي يحدد دورها التاريخي فقد ارتبط الدجال بالكذب والتزييف ويهوذا بالغدر والخيانة .

وعلى الرغم من غنى هاتين الشخصيتين بالدلالات المُعبرة التي يمكن إسقاطها على جوانب كثيرة من الحياة المعاصرة ، فإن الشعراء الليبيين لم يستفيدوا كثيراً بما لهما من طاقات تعبيرية ، مع أنهم طرقوا عدة مجالات تستوعب دلالاتها المختلفة ، فلا نجد سوى إشارتين إلي يهوذا الأولى في قول علي صدقي عبد القادر:

لن يطفأ بالكونجو مصباح الزيت

فجنود البلجيك القتلة

يفزعهم مصباحُ الزّيت

تمتد لتخنقه آلافُ الأيدي المرتعشة

لفظتها أوروبا المعصوبة

بصليب يهوذا الذهبي [١]

والثانية في قول لطفي عبد اللطيف مشيراً إلي غدر يهوذا وإلي دوره في دفع المسيح إلي الصلب حسب الرؤية المسيحية يقول مخاطباً القارة الإفريقية التي يرمز إليها بمريم العذراء :

يا مريم السّوداء يا ممتصة الضّلوع

يا مخدع التوائم المخدوع

يا نهد الرّعب يا فراش من لم يفترش

من في غد يخشي بوجه الحكم "النمش"

فلتقطعي ثديك دون خصبك الغبي

ليبعث النبي

بدون أن يدفعه لحتفه يهوذا [٢]

فيهوذا يمثّل الاستعمار بما فيه من غدر وخيانة ، وهو الذي يعمل على تأخير نهضة إفريقية ، ومحاربة الثورة ودفع الثوار إلي موارد الموت حتى لا يفضح أحد ألاعيبه ، ويكشف خداعه ولكي تظل القارة

---

[١] الأعمال الشعرية الكاملة : علي صدقي عبد القادر ، ص٢٧٢ .

[٢] ديوان " حوار من الأبدية " : لطفي عبد اللطيف ، ص ٢٠ .

في جهلها وتخلفها يمتص خيرتها ، ويذيقها العذاب والهوان ؛ فالاستعمار هو يهوذا الجديد .

ولما كان الرّفض شعاراً يرفعه شعراء الواقعية فقد كان من الطبيعي أن يلتفتوا إلي الشخصيات الرافضة المتمردة وخاصة تلك التي تمردت علي الواقع وانحازت إلي الفئات الشعبية المقهورة ورفعت راية الرفض في وجه الطغيان وقاومت استبداد السلطة .

ومن هذه الشخصيات التي اشتهرت بموقفها الرافض : الحلاج ، والحسين بن علي ، وأبي ذر الغفاري . كان الحلاج أوفر هذه الشخصيات حظاً في الشعر العربي الحديث فقد لقي عناية شاعرين من رواد الشعر الحر هما البياتي ، وصلاح عبد الصبور ، وكان صنيعهما كشفاً شعرياً للأبعاد الفكرية والنفسية لهذه الشخصية أغرى كثيراً من الشعراء بتناول ملامحها المختلفة .

وكانت مأساته متمثلة في الطريقة البشعة التي مات بها قد أضفت عليه هالة من التقدير والتعظيم والتقديس ، وخلعت عليه دور المفكر الذي يرفض الخنوع ويتحّمل العذاب والألم في سبيل ما يؤمن به ، يقول صلاح عبد الصبور " كان عذاب الحلاج طرحاً لعذاب المفكرين في معظم المجتمعات الحديثة وحيرتهم بين السيف والكلمة ، أن يرفضوا أن

يكون خلاصهم الشخصي باطراح مشكلات الكون والإنسان عن كواهلهم هو غايتهم وبعد أن يؤثروا أن يحملوا عبء الإنسانية على كواهلهم"[١]

وهذا الجانب من حياة الحلاج هو الذي استوقف الشعراء الليبيين الذين اتخذوا الحلاج قناعاً عبروا من خلاله عن معاناتهم وهم يواجهون عنت السلطة وقهرها ، يقول علي الفزاني :

أذكري أني ضحيّة

اكتبي أسفار موتي بحروف عربيّة

صلبوا قبلي المسيحا

قتلوا الحلاج في ذات عشيّة [١]

ويقول في قيدة مذكرات بروشيوس :

أنا وأنت كلنا حلاج

يموت واقفا

الباب مقفل بلا رتاج [٢]

---

[١] حياتي في الشعر: صلاح عبد الصبور ، دار اقرأ – بيروت ، ١٩٩٢م ص١٦٧ – ١٦٨ .

[١] المجموعة الأولي من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ، ص١٩٧ .

[٢] المرجع نفسه . ص ٢١٨ .

والحلاج عند جيلاني طريبشان رمز للثائر الذي يواجه جور السلطان ويهزأ بجبروته وكأن الثوار هم نسل الحلاج الذين يظهرون في كل عصر ليعطوا المثلَ في التضحية والفداء ويعمدون ثورتهم بالدم والشهادة :

حلاج آخر يتجاسر

يهتف في غبش الظلمات

يكتب فوقك يا نعش السلطان الفاجر

لا تسكب سُمّك في العسل [٣]

ونجد هذا الفكرة نفسها عند السنوسي الهوني الذي يستفيد من فكرة الحلول ليوظفها لصالح تناسل أبناء الثورة مضمناً أحد أبيات الحلاج المشهورة :

إيه يا أفراج ... إيه يا أحزان .. يا برد الليالي الهمجية .

كلما نورٌ في الظلمة والبرد شعاع .

سجد الحلاج في صمت وحيّته السما

هل أنا أنت ... وهل أنت أنا ؟ [٤]

---

[٣] ديوان " رؤيا في ممر عام ١٩٧٤ " : جيلاني طريبشان ، الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس ، ١٩٧٨م ص ٣٣ .

ويتقمص علي الفزاني شخصية الحلاج ويستعير كلماته وموقفه حين يقول :

الفقراء كانوا لي بداية الألم

وغاية الألم [٥]

ولم يتوقف الشعراء الليبيون كثيراً أمام شخصيتي الحسين ، وأبى ذر الغفاري ، وإنما وردا في إشارات عابرة تستلهم ملامحهما العامة دون التوقف عند ملمح معين يقول علي صدقي :

قتل الحسين مرّة أو مرتين عشرين ، ولكن لم يمت

والأثيم قاتل الحسين قبله ، بعاره قضى فمات [١]

فالحسين رمز للمبادئ النبيلة الخالدة وللثّائر الشريف الذي يظل حيّاً يتجدد في شخص كل مناضل شريف ، يحمل المبادئ نفسها . أما الطغاة فيموتون ولا يبقى لهم من ذكر سوى العار الذي يلاحقهم إلى الأبد .

ويعطى جيلاني طريبشان للحسين دور الثائر الذي تطارده السلطة وتجند أدواتها لملاحقته في كان زمان ومكان لتسكت في صوته صوت الثورة طريق الشعوب إلى الكرامة :

---

[٤] ديوان " عن الحب والصحو والتجاوز" : السنوسي حبيب الهوني , دار الحقيقة – بنغازي ، ط١، ١٩٧٥م ص ١٣ .

[٥] المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة : ص ٢٧٥، ٢٧٦ .

[١] الأعمال الشعرية الكاملة : علي صدقي عبد القادر ، ص ٦٤٨ .

البغاء الأحمق اللعين

بالأمس كان في العراق يتابع الحسين

ويلعق اليوم هنا دم الحسين

لكنما التاريخ والفصول

تقول

المجد للشعوب حين ترفع الجبين [٢]

أما أبو ذر الغفاري فلم يحظ في الشعر الليبي إلا بإشارة مقتضبة في قول الفزاني متحدثاً باسم الثائر :

أعود عبر ذر

أعود في خيوط هذه المطر

في الخصب والنماء

في الثورة الهوجاء [٣]

وإلى جانب الشخصيات المتمردة نجد كذلك بعض الشخصيات التي عرفت بممارسة القمع السياسي ، واشتهرت بالطغيان والوحشية مثل : الحجاج بن يوسف الثقفى ، وجنكيزخان ، وهولاكو وعلى الرغم

---

[٢] ديوان " رؤيا في ممر عام ١٩٧٤ " جيلاني طريبشان ص ٤٧ .

[٣] المجموعة الأولى من العمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني . ص ٤١٤ .

من أن الأخيرين لا ينتميان إلى التاريخ العربي انتماءً مباشراً فإنهما مثلاً في الحياة العربية مرحلة خطيرة جعلت منهما رمزاً للبربرية والوحشية والطغيان والخراب والدّمار .

والحجاج رمز للحاكم الطاغية الذي يطيح بالرؤوس ويكمم الأفواه ويفرض الصمت :

(هذا ثمر رؤوس آن قطافه)

تتلألأ شفرة سيف الحجّاج

تتصلب أعراق الرّقبة والرأس

ترتعش الركب .. الأقدام .. الأقلام

ينكمش صداح الكلمات [١]

أما جنكيز خان وهولاكو فقد عبر الشعراء من خلالهما عن القوى البربرية المعادية للحياة والسلام وأصبحا في العصر الحديث يرمزان للاستعمار الغربي في عدوانه على الشعوب وفي توسعه على حسابها ، وفي ممارساته التي تتسم بالهمجية والوحشية ، يقول علي الرقيعي في قصيدة " جنكيز خان " محذراً من جنكيز خان الجديد :

لا لم يمت مازال في أرض الخلاعة والبغاء

حيث الصغيرات الحسان يبعن أحلام الليالي

---

[١] ديوان " عن الحب والصحو والتجاوز " : السنوسي حبيب ص ٢٤ .

وحيث يبكي الأشقياء بلا دموع

لص خسيس

مترهّل الشدقين مسودّ الضمير

عيناه فوهتان من لون الدّماء

عيناه من نجل الجراح

من أنَّه المطعون تجلده السياط [٢]

ولا تختلف شخصيّة جنكيزخان عند الفزاني عنها عند علي الرقيعي فالموت والخراب والدمار هي أبرز الملامح المرتبطة بهذه الشخصية وكذلك شخصية هولاكو ودورهما يتجدد في كل عصر :

نحن جئنا نبتغي في جزر الأحلام ضوءاً وشموع

فوجدنا ألف (جنكيز) ، ألف (هولاكو) على هذي الهضاب

ناشراً في الصفصف المغبر آلاف الحراب

جثث الموت وأنهار الدّمار العاتيات [١]

---

[٢] ديوان " الليل والسنون المعلونة " :علي الرقيعي , منشورات أمانة الإعلان والثقافة – طرابلس ، ط١ – ١٩٩٠م ص ٥٦

[١] المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ، ص ٣٦٢

ويمكن أن نلاحظ فرقاً بين الشاعرين في استخدام شخصية جنكيز خان فعلى الرقيعي يتخطى ملامح الشخصية المستدعاة فيلقي من خلالها بدلالات معاصرة بينما عمد الفزاني إلى إبراز البعد التاريخي لشخصيتي جنيكيزخان وهولاكو ، تاركاً للقارئ استنباط الحاضر المعاصر من الماضي .

ولم تجذب الشخصيات الأدبية عناية الشعراء الليبيين ، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى شاعر واحد هو خالد زغبية الذي كتب قصيدتين : إحداهما " لزومية إلى أبى العلاء " [٢] والثانية " كتابة على قبر المتنبي" [٣]

ولا يستعير الشاعر ملمحاً معيّناً في شخصية أبى العلاء ، وإنما يفضى إليه برؤيته الخاصة لواقعة العربي الذي يجتزئ منه الجانب الفكري بوصفه لصيقاً بالشخصية المستدعاة ، وهو يدين الحياة الفكرية العربية التي يراها تعتمد على الزيف والتدجيل وإخفاء الحقائق مما أتاح مجالاً للعناصر التافهة من ذوي الأقلام الرخيصة التي يتحول كل شيء لديها إلى تجارة خاضعة للربح والخسارة .

ولا يكاد يختلف الأمر مع تناوله لشخصية المتبنى الذي اتخذه قناعاً ليحاكم من خلاله نقائص عصره حين يقول :

الشعارير التي غرها زيف المحابر

---

[٢] ديوان " غداً سيقبل الربيع " : خالد زغبية ص ٨٣

[٣] المرجع السابق . ص ٩١ .

ملأت مستنقع التاريخ قيئاً

طفحت مثل الطحالب

فوق موج الشعر ظلت

تمسخُ الأحرف مسخاً

وغدت تطفو على غدران أنهار الجرائد [١]

ومن الشخصيات التي تنتمي إلى الموروث الشعبي اهتم الشعراء بالسندباد ، وشهريار، وشهرزاد " (وقد تعددت ملامح شخصية السندباد ووجوهه في الشعر العربي المعاصر بتعدد أبعاد تجربة الشاعر المعاصر ، وتنوع ملامحه النفسية ، والاجتماعية ، والفنية ، وإن كان من الممكن ردّ وجوه السندباد وملامحه – على كثرتها وتنوعها – إلى وجهه الأساس الأصيل ، وجه المغامر الجواب بحيث يمكن لكل وجوه السندباد الأخرى أن تعد ملامح تفصيلية لهذا الوجه الأساسي) [٢]

وإذا كان السندباد في التراث هو ذلك الجواب الذي يغامر من أجل أن يعود من رحلاته العجيبة بالطرائف والأخبار والهدايا بعد أن يكابد أهوال السفر ومخاطر البحر وعناء الغربة ، فإن الشعراء الليبيين الذين استخدموا السندباد قد مالوا إلى توظيف جانب المغامرة عند

---

[١] المرجع السابق . ص ٩٢

[٢] السندباد بين التراث والشعر العربي : على عشرى زايد ، مجلة الثقافة العربية – بنغازي – ليبيا . العدد " ٤ " فبراير ١٩٧٤ م ، ص ٢٠٥

السندباد ليعبروا عن بحث الشاعر عن الكلمة ومعاناته في سبيلها وهو رحلة شاقة كثيراً ما تبوء بالخسران (وليست عملية الإبحار أو المغامرة أو الاستكشاف مقصورة على المساحة المكانية الواقعة خارج الذات نفسها ، بل إنها يمكن أن تتجه إلى الأصعب ، أي إلى الذات نفسها ، في رحلة طويلة من العذاب والمعاناة) [٣] يقول الفزاني :

رحلاتي في بحار الكلمات

رحلات السندباد

تاه حينا في الصحاري ثم عاد

بخطى تدمى ولحن مستعاد

واستحال الشوق والحرف رماد

أهرقته الريح منى والمداد

صار زيفا .. وأباريق رماد

دفنوها في الروابي مع رفاة السندباد [١]

---

[٣] ظاهرة الغموض في الشعر الحر : خالد سليمان . مجلة فصول . المجلـد ٧ . العددان ٢/١. اكتوبر ١٩٨٦م /مارس ١٩٨٧م . ص ٧٦

[١] المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ، ص ٩٧

وعلي الفزاني أول شاعر ليبي وظف شخصية السندباد في الشعر الليبي حيث استخدمها في قصيدته " موت السندباد " التي اقتطعنا منها هذا المقطع وقصيدة " نزيف القلب " [٢] وقصيدة " غربة الملامح الأسمر " [٣]

ونعثر في شعره على كثير من الآثار التي تتصل بشخصية السندباد مثل : الرخ ، والشراع ، والبحر ، وتظهر هذه الملامح السندبادية أيضاً عند جيلاني طريبشان الذي تكثر لديه المفردات التي تتصل بلوازم السفر ورحلات البحر مثل : الأشرعة ، والمرساة ، والمد والجزر ، والتيار ، والسفن ، والمركب والملاح والعباب ، والمد والريح وغيرها ، وهو في قصيدته " السندباد يهاجر أبداً " يستغل شخصية السندباد للتعبير عن تجربته النضالية من أجل حلم التغيير وإشعال فتيل الثورة هذا الحلم الذي ينتظره طويلاً ، ثم يكتشف أنه مازال سراباً ولا شيء يدل على أنه سيبقى حقيقة ، ويعود السندباد من رحلات البحث متعباً مرهقاً يائساً :

أذبله التجوال

يعود من حيث أتى

منكس الراية والحراب

ملء يديه الريح والسراب

---

[٢] المرجع السابق : ص ٢٤٤

[٣] المرجع السابق : ص ٢٣٧

مهاجراً القى عصاً الترحال عند الغاب

منتظراً

أن نضرم النيران في الخشاب

أن يقدم الأحباب

وأن يطل القمر الخجول لحظة الإياب

لكنه ظل وظلت الأشياء في السراب [١]

أما شهرزاد فقد شاع استخدامها في الشعر العربي المعاصر رمزاً للمرأة العربية المقهورة التي لا زالت تعيش في عصر الحريم [٢]، ولكن الشعراء الليبيين الذين استخدموا شخصية شهرزاد حادوا بها عن هذه الدلالة ففي قصيدة " شهريار وشهرزاد " يتخذها الشاعر أبو قاسم أبودية رمزاً للمرأة القوية الذكية التي تستطيع أن تروض الطغاة ، وتجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويرى أن عصرنا في حاجة إلى شهرزاد جديدة في مثل شجاعة شهرزاد القديمة وقوتها وذكائها :

عصرنا اليوم بحاجة

لعديد من نساء

مثلك يا شهرزاد

---

[١] ديوان " رؤيا في ممر عام ١٩٧٤ " :جيلاني طريبشان . ص ٥٣

[٢] استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر . ص ٢٠٢

فعسى يُصلحن من طبع العباد

****

إنهم حقا بحاجة

لحليلة وحليلة

مثلك يا شهرزاد

فعساهم

أن يثوبوا للرشاد [٣]

ويتردد اسم شهرزاد في عدد من القصائد لشعراء مختلفين ، لكن أكثر الشعراء توظيفاً لشهرزاد الشاعر علي الفزاني الذي وجد فيها ما يعبر عن حالة الإحباط واليأس والقنوط بتحقير الذات القومية التي كانت تعيش – في رأيه – على الأوهام وأمجاد الماضي غائبة عن وعيها وعن واقعها إلى أن فاجأتها هزيمة سنة ١٩٦٧م التي كانت نتيجة للعقلية المتخلفة التي خلفتها أقاصيص ألف ليلة وليلة ، وهو إذ يدين شهرزاد الرمز ، فإنما يدين العقيلة العربية التي نامت على دغدغه أمجاد الأمس دون أن تفكر في حاضرها وأن تعمل لمستقبلها :

شهرزادى فتحت باب المدينة

---

[٣] ديوان " وانفجـر البركـان " : دار الحقيقـة – بنغـازي . ط١ – ١٩٧١م . ص١٨٧

ثم صاحت بالأبابيل اللعينة

ادخلوها ... ادخلوا فالشرق موتى وسكارى

وبغايا وأباريق حقيرة

كم روت لي هذه الرقطاء في ليل التوتر

خبّرتني عن أبى زيد الهلالي وعنتر

وسقتني ألف كأس بتعاويذى معطر

أنا ألهو غبياً ثم ألهو ثم أسكر [١]

ويبقى ملمح القص في شخصية شهرزاد هو أوضح الملامح التي ركز الفزاني في إدانته لاجترار الماضي والانشغال عن قضايا الواقع ، كما استعمل هذا الملمح في تثبيت سمات معينة للخصية العربية والشرقية على لوجه العموم ، وهي – في حقيقتها – سمات ذات منشأ غربي هدفه النيل من هذا الشخصية وتحقيرها ، ومن المؤسف أن الشعراء العرب – بحسن نية – قد عملوا على ترديد تلك السمات تعبيراً عن خطهم ونفورهم من واقع أمتهم ، حتى اصبحت مفردات مثل : الربابة ، والأفيون ، والنرجلية ، والجوارى ، والغلمان ، والبخور، والتعاويذ ، والدردشة والخيانة تشكل أنموذجاً لصيقاً بالشخصية العربية ولازمة من لوازمها . يقول الفزاني من قصيدة " حكاية لأحفادي " :

---

[١] المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ص ١٥٥– ١٥٦

وتحمل الرياح والمذياع لي

أغنية شرقية الشجون

حكاية قديمة عن شهرزاد

رواية عن عاشق ... وقصة عن فاتح

عظيم

جياده الأصيلة

غزت ذرى أسبانية

قصوره تضم ألف خادم وجارية [١]

على الرغم من أن المتن الشعري الليبي قد حوى عدداً كبيراً من الشخصيات التراثية التي مثلنا لبعضها فإن هناك كثيراً من الشخصيات التي لم يتجاوز ذكرها مجرد الإشارة مثل : ولادة، والخنساء ، وخولة ، وأسماء ، وأبى زيد الهلالي ، وعنترة .

ومن ثم فإن الشعر العربي المعاصر استفاد من تقنيات الشعر الغربي في هذا الجانب ، ولهذا انتقل من مرحلة التعبير عن الموروث إلى مرحلة التعبير بالموروث .

---

[١] المرجع السابق . ص ١٦٣

وقد حظي توظيف الشخصيات في الشعر العربي الليبي باهتمام الشعراء الليبيين ، فنجد في شعرهم شخصيات تاريخية ودينية التي قدمت في الغالب للكشف عن المفارقة بين الماضي والحاضر ، ومن ثم فإن الشخصية تُعاد صياغتها فيرمز بها إلى شخصيات وواقع معاصر تتركز على وجوه الاتفاق والاختلاف ، وهم بذلك استطاعوا أن يرتقوا بالقول الشعري ليكون مصاحباً للتجارب الشعرية المعاصرة ، وقد شارك معظم الشعراء في الإفادة من هذا التطور وإن استغرق فيه بعضهم نتيجة الثقافة التي مكنتهم من اجتلاب هذه الصور التي ارتقت بالشعر العربي الليبي .

المصـــــادر

القران الكريم

١- ديوان " أنشودة الحزن العميق " : محمد الشلطامي ، منشورات جيل ورسالة – طرابلس ، ط١ – ١٩٧٢م.

٢- ديوان " تخطيطات على رأس شاعر " : إدريس بن الطيب ، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – طرابلس ، ط١ – ١٩٧٦م .

٣- ديوان " تراكم الأمور الصعبة " : عبد الحميد بطاو ، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – طرابلس ؛ ط٢ – ١٩٨٣م .

٤- ديوان " حوار من الأبدية " : لطفي عبد اللطيف ، دار لبنان للطباعة والنشر – بيروت ، ط١ – ١٩٦٩م .

٥- ديوان " رؤيا في ممر عام ١٩٧٤م " جبلاني طريبشان ، الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس ، ١٩٧٩م .

٦- ديوان " عن الحب والصحو والتجاوز " : السنوسي حبيب الهوني ، دار الحقيقة – بنغازي ، ط١ – ١٩٧٥م .

٧- ديوان " غداً سيقبل الربيع " : خالد زغبية ، الدار العربية للكتاب – ليبيا – تونس ، ط٢ – ١٩٨٩ م .

٨- ديوان " قصائد بين يدي وطني " : عبد المجيد القمودي ، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان - طرابلس ، ط١- ١٩٨٢م

٩- ديوان " الليل والسنون الملعونة " : علي الرقيعي ، منشورات أمانة الإعلان والثقافة - طرابلس ، ط١ - ١٩٩٠م .

١٠- المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة : علي الفزاني ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان - طرابلس ، ط١ - ١٩٧٥م ،

١١- ديوان " وانفجر البركان " : أبو القاسم أبو دية ، دار الحقيقة - بنغازي ، ط١ ، ١٩٧١م .

المراجـــــع

١- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر : علي عشري زايد ، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان – طرابلس ، ط١ – ١٩٧٨م

٢- حياتي في الشعر : صلاح عبد الصبور ، دار اقرأ – بيروت ، ١٩٩٢م

٣- السندباد بين التراث والشعر العربي : علي عشري زايد ، مجلة الثقافة – بنغازي – ليبيا ، العدد "٤" فبراير ١٩٧٤م .

٤- ظاهر الغموض في الشعر الحر : خالد سليمان ، مجلة فصول المجلد "٧" العددان "١،٢ " اكتوبر ١٩٨٦م ، مارس ١٩٨٧م .

٥- المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر: الحلقة النقدية في مهرجان جرش الثالث عشر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – الأردن ط١- ١٩٩٥م .